محاضرة الدراسات العليا/ الدكتوراه لغة

عنوان المحاضرة: (في النحو العربي نقد وتوجيه)

أ.د. ليث قهير عبد الله

توجّهت الانتقادات قديما وحديثًا إلى النّحو العربي متهمة علماءه بالتعقيد حينا والتعصب حينا آخر، وظهرت دعوات تنادي إلى ضرورة تيسير النحو وفق الظروف المتأتية، والحاجّة الملحة على ما يستوعبه الدارسون من أجل تيسير عملية تعلم هذا العلم، وقد أصبحت المؤلفات تتضمن منهجا جديدا يراد من خلاله الوصول إلى أهداف وغاية الدارسين، فكانت صيحات تطلق هنا وهناك في سبيل الوصول إلى قضية مهمة وهي ضرورة التيسير.

وفي وقتنا الحاضر زادت الشكوى من النحو عند المعلمين والمتعلمين، نتيجة صعوبة تعلمه وضعف التحصيل فيه، فباتت فكرة تيسيره ضرورة ملحة قد أجمع عليها كثير من النحاة والباحثين المحدثين والمهتمين بهذا الشأن، فظهرت مؤلفات عديدة في ذلك محاولة إعادة تشكيل النحو العربي في صورة جديدة، يفترض أنها ميسرة وخالية من التعقيد، وقد ثبتت ضرورة التيسير للعوامل الآتية:

١ _ التيسير ضرورة لصعوبته على المتعلمين:

وفي هذا الصدد يقول إبراهيم مصطفى:« ورأيت عارضة واحدة لا يكاد يختص بها معهد دون معهد، ولا تمتاز بها دراسة عن دراسة، هي التبرم بالنحو، والضجر بقواعده، وضيق الصدر بتحصيله، على أن ذلك من داء النحو قديما، ولأجله ألف(التسهيل)، والتوضيح والتقريب. واصطنع النظم لحفظ ضوابطه، وتقييد شوارده .

ثم انتقل ليوضح لنا خطورة المشكلة عند الناشئة من المتعلمين في قوله: « وإذا جئنا إلى مدارس الناشئين، كانت المشكلة في تعليمهم النحو أشد وأوضح، فهو على ما تعلم من بعد تناوله، وصعوبة مباحثه، قد جعل المفتاح إلى تعلم العربية» .

وفي الموضوع يقول علي أبو المكارم:« لعل من المسلم به عند كثير من الباحثين والدارسين أن النحو العربي بقدر من الصعوبة كبير. ولقد أدرك هذه الصعاب شيوخ النحو وأعلامه كما أحسها تلاميذه، وليس من شك في أن نمط المصاعب التي تواجه أولئك غير التي يلمسها هؤلاء بيد أن النتيجة التي ينتهي إليها أولئك وهؤلاء جميعا هي وجود هذه المصاعب التي تجعل من النحو العربي علما ينبغي أن تتوفر الجهود عليه، لتذليل صعابه، وتبسيط مسائله، وتيسير الاتصال به سواء للباحثين فيه، أو الدارسين له»٤.

وقال أحمد عبد الستار: « مازال نحو العربية عند أهلها عسيرا غير يسير، وغير ممهد، منحرفا إلى غير قصده، لا يخلو من تعقيد، ولا يسلم من انحراف، وما زال هذا النحو مثار شكوى من المعلّمين والمعلَّمين على سواء، يبدؤونه فلا يكادون يبلغون منه غاية، أو يصلون فيه إلى نهاية، لا يعرفون مداه، ولا يدركون منتهاه، كلما توسعوا فيه اتسع أمامهم مجاله، وتشعبت مسالكه، فشغلتهم فيه الوسيلة عن الغاية. ليصل أن الأمر اختلط، واضطرب، وصار معه النحو مشكلة من مشكلات التعليم في أغلب بلادنا العربية».

٢ _ التيسير ضرورة لحاجتنا إلى التطور:

ونحتاج إلى تيسير النحو من أجل مواكبة التطور والعصرنة، بأن نحقق نهضة في اللغة أو باللغة.

وفي هذا الشأن يقول أمين عبد الله سالم:« ونعترف أن النحو قد عاد فضل منه متأبى القياد شموسا على مدارك العصر، وأفهامه، وطموحاته بما هو غير خفي على مخيلة أحد من القائمين عليه، وأن الإخلاص دائب على

ترويضه، وتهذيبه بما تهيأ حتى يومنا....فالتطور اللغوي سنة طبيعية تجري عليها جميع اللغات، وهي سنة حميدة ما دامت مصدر إثراء، وتيسير النحو وأحكامه مطلوب في مسيرتنا اليوم، لأننا أحوج ما نكون اليوم إلى اللغة»٦

وقدّم أحمد عبد الستار الجواري طرحا في حاجتنا إلى تيسير النحو من باب تطورنا، أو لحقنا به، حيث يقول:« إن الفكر الحديث بما أصاب من تطور يزداد يوما بعد يوم، قد جعل أسلوب التعبير عنه في بلبلة واضطراب، فهو يوما يجتهد ليلحق به، وتارة يقعد عن ملاحقته عجزا، أو كسلا، أو جهلا بحقيقة أمره، ولذلك ترانا نثقف العلوم الحديثة باللغات الأجنبية مرة أو بالتعبير عنها بالعربية الفضفاضة غير الدقيقة مرة أخرى. وعلة هذا أو ذاك أنا لا نحسن نحو العربية على حقيقته، أو أن ما نسميه نحن نحو العربية ليس وافيا بوظيفته، ولا قادرا على الوفاء بحاجتنا الفكرية، وحاله أصبح أشبه بعلم الآثار، أو الحفريات، مما لاتظهر علاقته بواقع العصر، ولا ترتبط بحياة الناس الذين يتكلمون باللغة، وبها يفكرون، وبها يتعلمون، وبها يتناقلون الأفكار ويتواصلون في المشاعر والأحاسيس».

خطورة التيسير

إن تيسير النحو بعد كل ما ألف فيه من كتب، وما عقد حوله من مؤتمرات وندوات، مازالت في أغلبها محاولات فاشلة لم تجد لها أي صدى، والأكثر من هذا غابت عنا حقيقته. وكأن العلة انتقلت من صعوبة النحو إلى غموض التيسير. فما حقيقة التيسير؟ ماذا نيسر؟ وكيف نيسر؟ وأسئلة أخرى حولت التيسير من ضرورة إلى خطورة ابتلى بها النحو العربي الأصيل. وقد لخصنا هذا في نقطتين أساسيتين:

أ _ قصور في فهم التيسير:

ولا بد أن نشير إلى أمر ذي خطر كبير في فهم معنى التيسير، وفي سلوك السبيل القويم إليه، ذلك أن التيسير عند الكثرة ممن يعنون بأمر اللغة، ويتصدون للبحث فيها، يعني التسهيل، والاختصار، وتذليل الصعب من مباحث النحو، وتمهيد الوعر من مسالكه.

وهذا في الحق جزء من التيسير وجانب من جوانبه، وقد اتجهت إلى هذا الجانب جهود غير قليلة فعملت في منهج الدراسة النحوية حذفا، وتبديلا، وتحويرا تريد من وراء ذلك كله أن تسهل على الدارسين، وتأخذ بأيديهم ليسلكوا سبيل النحو قدر المستطاع ‘ويجب علينا قبل هذا وذاك تحديد وجهة البحث في موضوع التيسير، والهدف منه، لأن هناك فرق بين السعي لتبسيط القوانين الثابتة في العلم، وبين السعي لتبسيط الصورة التي يعرض بها هذا العلم، ويبلغ للمتعلمين. فكثير ممن اشتغلوا بمسألة القواعد النحوية، وتيسير تدريسها يلتبس عليهم الأمر، فلا يميزون تمييزا حاسما بين معياري السهولة والوضوح، هل يريدون بالتيسير نحوا سهلا؟ أم نحوا واضحا؟.

فإذا كنا نريد نحوا سهلا، فلا توجد سهولة في النحو من حيث هو علم، فالنحو هو النحو، وإن أي مجهود يبذل لجعله أكثر سهولة مما هو عليه سوف يقوده لا محالة كما يقول يلمسلاف إلى تحرف القواعد والقوانين.

ومن جهة أخرى نؤكد أن تيسير النحو وأحكامه مطلوب في مسيرتنا اليوم، إلا أنه يجب ألا تخرج تلك القواعد، والأحكام عن الأسس التي وضعها علماؤنا الأوائل، وأن يعنى بالطرق التي تقدم هذا العلم للدارسين، ويستغني عن كل ما أثقله، فالتغيير يجب أن لا يمس الأصول وإنما يتعلق الأمر بالتخلص من القليل والضعيف والشاذ، وبطرقة عرض هذا العلم للدارسين، ويغير ذلك بنسف التراث وتضييع جهود الأئمة السابقين.

ب _ التيسير يخص الجانب التربوي:

إن تشخيص الداء وهو ضعف أغلب الطلبة في مادة النحو وتحصيلها أثبت أن أي دواء يوصف، وأي علاج يتبع خارج الميدان التربوي هو مضيعة للجهد وللوقت ولن يجدي نفعه؛ لذلك فإن المشكلة تحتاج إلى بحوث ميدانية بالتركيز على المثلث الديداكتيكي من معلم ومتعلم ومادة علمية، إضافة إلى ما يدعم المنهاج التربوي من أهداف

وطرق تعليمية ووسائل. حتى نقدم هذا النحو ميسرا وسهلا، ونزيل غموضه وتعقيده والذي تسبب في النفور منه وسلبه جاذبيته وبريقه.

١ ـ **دور المعلم:** وهو القائم بعملية التدريس، وهناك الكثير من ألقى عليه اللوم في فشل الطلاب في تحصيلهم للمادة المدرسة، ومنها النحو.

حيث يعد المعلم المؤهل القادر على التغيير هو حجر الأساس في عملية التطوير لذا لابد من الانتباه إلى دوره في عملية التطوير من حيث تدريبه وتأهيله بشكل يتناسب مع الأهداف المنشودة، وتبقى أفضل المناهج غير ذات قيمة إذا ما قام بتنفيذها معلم غير مؤهل، وغير مقتنع بجدواها.

وياسين أبو الهيجاء يرى ضرورة التأكد من صلاحية من أسندت له هذه المهمة، فيقول:« التأكد من صلاحية من يقوم بتدريس العربية أولا لأنه العامل الأول في المسألة كلها، وعليه ينعقد النجاح، والإخفاق وعلينا عقد الدورات التي تحسن آداءه في تدريسه، حتى إذا يئسنا منه حولناه إلى مهنة أخرى؛ ففاقد الشيء لا يعطيه»

ويرى أحمد عبد الستار الجواري أن نعد هذا المعلم الإعداد الجيد عند إسناد مهمة التدريس له، فيقول:« علينا إعداد الذين يقومون على تدريس النحو، وتعليمه إعدادا يشتمل على فقه ومعرفة واعية بالنحو، وسائر علوم العربية حتى لا يبقى النحو مادة غريبة عن الأفكار فلا ينتفع به»

ويرجع ياسين أبو الهيجاء ضعف الطلاب في مادة النحو إلى ضعف مدرسهم، فيقول:« والضعف يبدأ بالمدرس الذي اختار العربية غالبا؛ لأن التخصصات الأخرى سدت في وجهه، وقضية التفريع، وشطر الطلاب بين القسم العلمي والقسم الأدبي في المدارس الثانوية زادت الطين بلة...فمسألة التفريع دفعت بالطلاب المجدين_في أكثر الأحيان_عن الاهتمام بمجال الدراسات الإنسانية، وعلى رأسها العربية، فتزاحم ضعاف الطلاب في الفرع الأدبي، ومن هؤلاء جل المعلمين الذين سيعلمون العربية للناشئة»

وهذا ما ذهب إليه رمضان عبد التواب، وجاء في قوله:« قد يكون سبب الضعف الذي توصله الظروف المختلفة إلى كليات الآداب غالبا ما يبحث فيها عن أي قسم سوى قسم اللغة العربية حتى إذا لفظته سائر الأقسام لجأ إلى هذا القسم، وفي قلبه مرارة، وفي قلبه حسرة. إلى أن يتخرج هذا الطالب الأعرج لينشر الجهل بين صفوف التلاميذ».

أما إسماعيل أحمد عمايرة فإنه ركز على منهجية المدرسين في آدائهم التربوي التي اتسمت في الغالب بأحادية المنهج، الذي قد لا يأتي أكله، فقال:« فمما يؤخذ على نمط من مدرسي النحو، أنه يعرف منهجا واحدا لا يبرحه، ولا يطور نفسه، ليرى كيف ينظر إلى الظاهرة من بعد آخر يكشفه له منهج ثان، أو ثالث. إن الحقيقة اللغوية لاتشبه الشكل البسيط المسطح ذا البعد الواحد، إنه كالمكعب، أو أشد تعقيدا، أو أكثر أسطحا، وتحتاج أن تلقى عليها الأضواء من كل جانب، ومن هنا يأتي دور المناهج المتعددة لتضيء الأسطح المتعددة»

وقد اقترح الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح قوانين عامة أثبتتها اللسانيات، وهي مما لا يجوز للمربي جهلها. وتجاوز أهم المشاكل التي تتعرض لها اللسانيات التربوية، والتعرف الموضوعي على هذه المشاكل: ماذا يجب أن نعلم من اللغة؟ وكيف يجب أن نعلمه؟. والإجابة الصحيحة تتطلب في بحثها التمييز بين ثلاثة جوانب، وهي النظر في محتوى اللغة التي تقدم للمتعلم، والنظر في محتوى الطريقة أو الطرق التي تستعمل لتبليغ هذا المحتوى، والنظر في تأدية المدرس لهذه الطرق وكيفية تطبيقه لها.

٢ ـ **المتعلم:** وهو محور العملية التعليمية التعلمية، وأساس نجاحها التعرف على خصوصية المتعلم بما يميزه من خصائص نفسية وعقلية ومعرفية، ثم وجوب مراعاتها عند اختيار المادة الدراسية أو تقديمها له وفق احتياجياته وخصائصه.

والطرائق الحديثة في تعليم اللغة تؤكد على الانطلاق من لغة المتعلمين لأنها لصيقة بحياتهم، ومعبرة عن خبراتهم، وبهذا تنتفي الصعوبة التي يحس بها المتعلمون عندما يستعمل المعلمون في تدريسهم المفردات والأساليب والأنماط البعيدة عن عالم الأطفال. وإذا كان التعليم الفعال في ضوء التربية الحديثة ينطلق من واقع الفرد، ولا يجهل خبراته السابقة فإن الوقوف على ما لدى التلاميذ من خبرة بغية العمل على تصحيحها، وتوجيهها وسد ثغراتها، واكتمال بنائها يحقق النمو ويؤدي إلى مزيد من النمو ومن أجل ذلك يرى محمد صاري أنه:« يجب تحليل إنتاج التلاميذ في شتى مراحل التعليم من أجل معرفة الموضوعات التي يكثر شيوعها في أساليبهم الكلامية، والكتابية، وكذلك معرفة الموضوعات التي يكثر الخطأ فيها، والصعوبات التي يجدها التلاميذ في التعبير عن أفكارهم، ومشاعرهم، ومشكلاتهم في ذلك، وهذا هو الأساس الذي تبنى عليه مناهج النحو في الدول المتقدمة».

٣ _ المادة العلمية:

هناك من رأى أن اللغة لاتعني النحو وحده، لذلك لا نحمله المسؤولية في ضعف الطلاب في اللغة العربية. وشيوع الفهم الخاطئ المعتقد أن النحو هو اللغة، ويغفل عن أنه مستوى واحد من مستويات اللغة، ولذا يرجع إليه كل عيب، أو ضعف، ومن ثم وجدنا أكثرهم يحولون تبسيطه وتسهيله، ونقده والمادة العلمية نختارها مناسبة لما خطط له، من أجل تحقيق فاعلية ما، لذلك يرى محمد صاري:« ضرورة التمييز بين الأنحاء، أو المستويات النحوية التي تحتويها اللغة الواحدة؛ فهناك مستوى من النحو يخص اللساني، والباحث هدفه التأسيس، والتأصيل، والاستنباط، وعمق التفسير، وهناك مستوى آخر يخص المربي، والمدرس، فمن غير المعقول أن يكون كتاب المعلم هو نفسه كتاب التلميذ، أو هو نفسه موسوعة اللساني»

ويرى الأستاذ الحاج صالح أن يكون تعليم اللغة من الجانب النحوي ومن الجانب التبليغي معا، ومن جهة أن تكون غايته إكساب مهارة لغوية خطابية، أو بعبارة أخرى بصنع قدرة غير شعورية على إنشاء الكلام السليم بحسب ما تقتضيه قوانين التخاطب. ويحتاط ألا يحول هذا التعليم من إكساب المهارة إلى إكساب المعرفة النظرية.

٤ _ الأهداف: والتي يجب أن يخطط لها وفق إمكانية تحقيقها، وأن تكون محدودة أيضا.

فمن الخطأ التصريح بأهداف طموحة للغاية، أو مرامي أو غايات لن تتحقق بسهولة، ومن المبالغة أيضا تحميل مادة النحو مسؤولية إكساب التلميذ ملكة التبليغ والتواصل.

٥ _ الطريقة والوسيلة:

إن الطريقة والوسيلة قادرة على ترسيخ أكبر للمادة المتعلمة وبالتالي وجب اختيارها بعناية فائقة، وهناك من ركز في هذه النقطة على التمارين اللغوية، والتمرس وأهميته، حيث يقول محمد صاري:« إن المدار الرئيسي الذي ينبغي أن يتأسس عليه تدريس للنحو هو فكرة التمرس اللغوي، لأن التمرينات اللغوية بصفة عامة، والتمرين النحوي على الخصوص، تقنية تربوية تتجاوز حدود الترف والموضة، لا تستغني عنها أي طريقة أو منهاج تعليمي مهما كانت توجهاته اللسانية والمنهجية، وبالتالي يجب أن يرتكز تعليم النحو على مجموعة كبيرة من التمرينات المتنوعة، والمكثفة التي تساعد على خلق المهارات اللغوية وإحكامها. وهيهات أن ينجح تدريس النحو دون تطبيق وتدريب »

وختاما نقول: إن الشكوى من تعلم النحو وصعوبته على الدارسين من ناشئة وكبار جعلت فكرة تيسيره، وإصلاحه ضرورة لابد منها، لكن من الخطأ والإجحاف في حق اللغة العربية أن نظن أن نحوها يمكن إصلاحه، فهذا العمل سيؤدي لا محالة إلى نسف التراث النحوي العربي الزاخر، وهدم قواعده الجوهرية، الذي ينقلنا من هدف التسهيل إلى خطر التساهل، وربما يوصلنا هذا إلى لغة فصحى مهلهلة، والأكثر من هذا لغة عاميّة . لذلك فإن ما يمكن إصلاحه وتيسيره بالفعل ما ذهب إليه الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، وهو تعليم النحو لا غير. ودليل صحته فشل هذه المحاولات في تحقيق أهدافها، وإعطاء البديل المقنع.

مع وجوب عدم إهمال هذه المشكلة التي سلبت النحو جاذبيته وبريقه، والنظر إليها من جانبها التربوي، والاستفادة من البحوث اللسانية التربوية لتخطي عراقيل تعلّم النحو، والحفاظ على أصوله الثابتة.